المبحث الثاني : عرض و تحليل رسالة حي بن يقظان لابن طفيل والخلفيات التي احتوتها:

" يشير ابن طفيل في كثير من المواضع في قصته "حي بن يقظان" أن المعرفة البشرية تنقسم إلى قسمين أساسيين ، القسم الأول هو في بداية تكوين فكر الإنسان و يتم له هذا عن طريق الحواس الخمس حيث تكون في المراحل الأولى من حياة الإنسان و القسم الثاني عن طريق العقل الذي يتدرج إلى معارف أخرى هي أعظم و أسمى و التي ينالها عن طريق العقل "[1] و من هنا سنتطرق إلا ذكر خصائص كل منهما عند ابن طفيل في رحاب قصة حي بن يقظان .

- **دور الحواس في المعرفة عند ابن طفيل:**

" للمعرفة الحسية عند ابن طفيل نهج و صفات ، فالأولى متعددة منها المراقبة ، المحاكاة ، الملاحظة ، الاكتشاف ، المصادفة ، التجربة ، الأختيار ، المقارنة و القياس ، الاستنتاج .. و من هذا فإن المعرفة مكتسبة و ليست مخلوقة و تلك هي الصفة الأولى من صفاتها ، أما الصفة الثانية فهي أن المعرفة متطورة "[2].

" إن إدراك هذه يكون عن طريق الحواس الخمس ، التي لا تدرك إلا الأجسام من صلابة و ملاسة و عمق و ظاهر ، و لا يكتفي ابن طفيل في ذلك بالملاحظات الأولى بل يقوم بتجارب عديدة ، كما فعل بشأن النار حينما جعل حي بن يقظان يمد يده إليها فتحرقه النار فيسحب يده فإن بردت يده مدها ثانية إلي النار حتى يقوم بإستنتاج هذه و يجعلها قاعدة راسخة ، كما أنه جعل حي يلقي في النار أجسام مختلفة ليعرف بذلك حقيقة فعلها و مدى تأثيرها في الأجسام ، كذلك فعل بشأن تشريح الحيوانات الميتة ، لأن ابن طفيل نفسه إشتغل بحكم صناعته في الطب بتشريح الحيوانات ، و من هنا يتضح لنا بان ابن طفيل يبني هذا

[1] محمد عاطف العراقي ، الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل ،م.س ، ص76.
[2] ابن طفيل ، حي بن يقظان ، تح:سعد فاروق ، م.س ،ص62.

القسم من نظرية المعرفة على الحس المادي و على التجريب من المعرفة عنده هي تصفح خصائص الموجودات المحسوسة ثم استنتاج المعنى الكلي منها "[1].

" يتطرق ابن طفيل في رسالة حي بن يقظان إلى تربية حي و المعرفة الأولى عن طريق الملاحظة الحسية و التجربة ، فهي غريزة في الإنسان ، و في الحيوان تسمى بقوى النفس التي تظهر تدريجيا مثل التذكر و النزوع و الكراهية ، فمازال حي مع الظباء و أنواع سائر الحيوانات ، وهي محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده و أكثر ما كانت محاكاته لأصوات الظباء في الاستصراخ و الإستئلاف و الاستدعاء و الإستدفاع "[2] .

" إن للحيوانات في هذه الأحوال أصوات مختلفة فألفته الوحوش و ألفها و لم تنكره و بعد ذلك أصبح يلاحظ و يقارن و كان ذلك عن طريق النظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار و الأشعار و الريش و كان يرى ما لها من سرعة العدو و قوة البطش ، و مالها من الأسلحة المعدة للدافع كالقرون و الأنياب و الحوافر و الصياصي و المخالب "[3] .

- **دور العقل في المعرفة**

" كان من بين أهم الأسباب التي أدت إلى تطور النضج الفكري و المعرفي لدى حي هو موت الظبية ، فولد عدة تساؤلات فأخذ يتفحص هذه الظبية عله يصل إلى سبب أو أسباب أدت إلى موتها فكان ينظر إلى أعضائها العديدة المتنوعة فيأخذ في النظر إلى أذنيها و عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة محددة و يقول ابن طفيل معبرا عما فعله حي لقد كان ينظر إلى جميع الآفة فيزيلها عنها لكي ترجع إلى ما كانت عليه وكان قد أرشده لهذا الرأي ما كان اعتبره في نفسه قبل ذلك لأنه كان يرى بأنه إذا أغمض عينيه أو حجبهما بشيء لا يبصر شيء حتى يزول ذلك العارض عندئذ أعتقد بأن جميع مالها من الإدراكات أو الأعمال قد

[1] . الشيخ كامل محمد عويضة ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى ، م.س ، ص98.

[2] . محمد رضوان الداية ، ابن طفيل الأندلسي ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2013م ، ص63.

[3]. عبد الحليم محمود ، فلسفة ابن طفيل ، م.س ، ص92.

تكون لها عوائق تعوقها ومنه فإذا أزيلت تلك العوائق عادت ، إلا أنه لم يهتدي إلى شيئ مما كان يجول في خاطره "[1] .

" بعد أن أطلع حي على عالم المحسوسات في حداثته تدرج ذهنه إلى إدراك المعقولات في الأسبوعين الرابع و الخامس من منشأة في هذا الطور الثاني من حياته العقلية ارتقى من النظر في المحسوسات إلى النظر في المعقولات و يعني ذلك أنه استطاع الخروج من الواقع الحياتي العملي إلى الفكر المجرد النظري وانتقل من البحث في الجزئي الخاص إلى البحث في الكلي العام "[2] و من بين أهم المباحث التي إطلع و توصل إليها حي هي :

- **النفس :**

. روحانية النفس : علم حي أن نفسه هي التي قادته لمعرفة الله ، وبما أن الله بريئ من التجسيم فلا يمكن إدراكه بالحواس و إنما أدركه بنفسه التي هي بدورها ليست جسما و إنما هي بريئة من التجسيم [3].

. أزليـة النـفس : إن الفساد و الاضمحلال هما من صفات الأجسام مثل ما يحدث للحيوانات عندما تموت و للنبات إذا لم يسقى أو يرمى في النار فيصيران ترابا أو رمادا فهذا هو معني الفساد و أما الشيء الذي ليس بجسم ولا يحتاج في قوامه إلى الجسم فلا يفنى و لا يدركه الفساد ، و منه رأى حي أن النفس ليت من خصائص الجسد فوصل لفكرة أن النفس أزلية باقية و لاتفنى بفناء الجسد[4] .

---

[1]- محمد عاطف العراقي ، الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل ، م,س ، 96.
[2]- محمد رضوان الداية ، ابن طفيل الأندلسي ، م.س ، ص66.
[3]- الشيخ كامل محمد عويضة ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى ، م.س ، ص122
[4] - نفسه ، ص124.

- **وحدة الوجود :**

اشتهر القول بوحدة الوجود عند ابن رشد زميل ابن طفيل اللاحق و الذي كان من أقوى أسباب نكبته ، و هو أيضا ما دعا الكرسي البابوي بعد ذلك إلى إصدار الجرم بحق من يقرأ أبن رشد (بالترجمة اللاتينية) على أن المتتبع لحكاية ابن طفيل في التعرف إلى عالم الطبيعة و ما بعد الطبيعة سوف يظهر له أن ابن طفيل قد سبق ابن رشد إلى هذا القول لكن أسلوبه القصصي موه هذه الفكرة و لم تؤخذ عليه و قاده بحثه إلى هذه النتيجة بالسياق التالي :

- . أن الجماد في عالم الطبيعة يشترك باعتبار الأبعاد الثلاثة .
- الإنسان يشارك الحيوان بكل ماله و يزيد عليه بالنفس العاقلة .
- الأفلاك ذات جرم كروي في غنى عن التغذية و النمو و التوليد و الحس و الحركة لأنها باقية بأشخاصها و ذات نفوس و عقول أتم مما عند الإنسان و أكمل.
- القوة التي أدرك بها حي الذات الإلهية تقتضي أن تكون من جوهرها و هي ماهية الإنسان فالإنسان من ماهية الذات الإلهية .
- عقول الأفلاك منبثقة من الله ، فهي من ماهيته.
- الوجود واحد و أن تعددت مظاهره و تفاوتت مراتبه.
- نظام الكون واحد لأنه منحدر من أصل واحد ، فالأصل هو كل الكون"[1].

- **الكون بين القدم و الحدوث :**

" إن القول بقدم الكون إقرار بوجود أزلي و هو ينافي المبدأ الفلسفي و الاعتقاد الديني و القول بحدوثه إقرار بوجود شيء من لا شيء و من هنا فلقد خرج ابن سينا من هذه المشكلة عن طريق التمييز بين نوعين من الأزلية بالذات و أزلية الزمان و خص الأولى بالله تعالى و جعل الثاني لمادة العالم "[2] .

[1]- عبد الحليم محمود ، فلسفة ابن طفيل ، م.س ، ص64.
[2] نفسه ، ص68.

" هنا يقف ابن طفيل حائرا أمام قضية حدوث العالم أو قدمه و لكنه يميل إلى القدم بدون أن يثبته إثباتا واضحا و ذلك لأن ابن طفيل وجد نفسه أمام مبدأ منطقي يعود إلى أرسطو والذي يقول بأن العلة وجدت متى وجد المعلول عنها حتما دون أن يكون بين وجود العلة و معلولها زمان هذا المبدأ الذي درج عليه كل من الفارابي و ابن سينا و العقيدة الإسلامية القائلة بحدوث العالم أما بالنسبة لقدمه فيعترضه استحالة وجود ما لا نهاية له و من جهة أخرى يعترضه وجود الحوادث في العالم فهو لا يمكن تقدمه عليها ، و ما لا يمكن أن يتقدم على الحوادث فهو أيضا محدث أما بالنسبة لحدوث العالم فيعترضه أن يكون الزمان قد تقدمه و الزمان هو من جملة العالم و هو غير مفك عنه ثم إنه لما كان العالم حادث فلا بد له من محدث و هذا المحدث الذي أحدثه لماذا أحدثه الآن و لم يحدثه قبل ذلك "[1] .

" ومعنى القدم في العالم يعني أن الزمان لم يتقدمه و أنه متأخر عن الله بالذات و إن كانت من ناحية أخرى غير متأخرة عنه بالزمان فمثلا لو أنك أخذت في قبضتك جسما من الأجسام ثم حركة يدك فإن ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعا لحركة اليد و من هنا فإن العالم كله معلول و مخلوق لهذا الفاعل بغير زمان "[2] .

- **و جود الله و صفاته :**

" إننا سوف نجد بأن ابن طفيل يقيم برهان وجود الله على حركة العالم فهو سواء كان قديما أو محدثا لا بد له من محرك و محدث و لهذا يقول ابن طفيل مفصلا آرائه في تحليل تفكير حي بن يقظان ، إن حي اعتقد حدوث العالم و خروجه إلى الوجود بنفسه و أنه لا بد له من فاعل لذلك و من جهة أخرى فإن هذا الفاعل لا يمكن إدراكه بشيء من الحواس و إلا فإنه سوف يصبح جسما من الأجسام أو أصبح جسما لكان من جملة العالم و كان حادثا و احتاج إلى محدث و بالتالي فإن هذا المحدث الثاني يحتاج إلى محدث ثالث و الثالث إلى الرابع ، وذلك على ما لا نهاية ، و من هذا فلا بد من العالم من فاعل ليس بجسم لأن

[1] الشيخ كامل محمد عويضة ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى ، م.س ، ص112.
[2] عبد الحليم محمود ، فلسفة ابن طفيل ، م.س ، ص58.

الحواس الخمسة لا تدرك إلا الأجسام أو ما يلحق الأجسام و إذا كان لا يمكنه أن يحس فلا يمكن أن يتخيل لأن التخيل ليس شيئا إلا إحضار صور المحسوسات بعد مغيبها لأن أول صفات الأجسام هي الامتداد في الطول و العرض و العمق لكنه منزه عن ذلك و على جميع ما يتبع ذلك الوصف من صفات الأجسام و إن اعتقد عدم العالم وصل إلى نتيجة نفسها إذ أن العالم متحرك و حركته قديم لا نهاية لها من جهة البناء و كل حركة لبد لها من محرك والمحرك إما أن يكون قوة سارية في جسم من الأجسام و إما جسم المحرك نفسه و إما جسم أخر خارج عنه و أما أن تكون قوة ليست سارية و لا شائعة في جسم "[1] .

" فالعالم إذا كله بما فيه من السماوات و الأرض و الكواكب وما بينها و ما فوقها و ما تحتها , فعله وخلقه متأخر عنه بذات إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ومن تصفح الموجودات على طريق الاعتبار في قدرة فاعلها و التعجب من جميل فلسفته و لطيف حكمته و دقيق علمه يتبين له في أقل الأشياء الموجودة فضلا عن أكثرها عن أثار الحكمة و بدائع الصنعة ما يفضي منه كل العجب "[2] .

أما صفات الله فإنها على ضروب و منها :

أ) **صفات ثبوت :** كالعلم و القدرة و الحكمة و هي كلها راجعة إلى حقيقة ذاته التي لا كثرة فيها بوجه من الوجوه إذا الكثرة من صفات الأجسام و علم الله إذا ليس معنى زائد على ذاته هي علمه و علمه هو ذاته فهو العالم و المعلوم و العلم .

ب) صفات السلب : فإنها راجعة إلى التنزه عن الجسمية و ما تعلق بها و لو عن بعد [3].

[1] عبد الحليم محمود ، فلسفة ابن طفيل ، م.س , ص60.

[2] نفسه ، ص57.

[3] الشيخ كامل محمد عويضة ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى ، ص126.

ج) الأجسام كلها شيء واحد :

بعد أن تصفح في جميع الأجسام التي في عالم الكون والفساد فرأى إنها تتفق ببعض الصفات و تختلف ببعض و هي من الجهة التي تتفق بها واحدة و من الجهة التي تختلف بها متغايرة و متكاثرة و كانت أيضا تتكاثر عند ذاته لأنه كان ينظر إلى اختلاف أعضائه و إن كل عضو منها فيرى أنه يحتمل القسمة إلى أجزاء كثيرة جدا و من هنا فإنه يحكم على ذاته بالكثرة و كذلك على ذات كل شيء[1] .

د) كل حادث لابد له من محدث :

" لما انتهى نظر حي إلى هذا الحد و بعد أن فارق المحسوس بعض المفارقة و أشرف على تخوم العالم العقلي استوحش و حن إلى ما ألفه من عالم الحس ، فترك الجسم على الإطلاق "[2].

" إن هذا الأمر لا يدركه الحس و لا يقدر على تناوله و أخذ أبسط الأجسام المحسوسة التي شاهدها فنظر إلى الماء فرأى أنه عندما يغلي يتبخر و على عكس ما تقتضيه صورته و عندما يبرد يطلب النزول إلى أسفل "[3].

[1] الشيخ كامل محمد عويضة ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى م س , ص 128.

[2] عبد الحليم محمود ، فلسفة ابن طفيل ، م س ، ص55.

[3] نفسه , ص 55.